ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾

مدين : اسم من أسماء أولاد إبراهيم عليه السلام ، وسُمِّيت باسمه القبيلة ؛ لأنهم كانوا عادة ما يُسمُّون القوم باسم أبرز أشخاصها ، فانتقل الاسم من الشخص إلى القبيلة ، ثم إلى المكان ، بدليل قوله تعالى في موضع آخر : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [القصص] فصارت مدين علَماً على البقعة ، وقالوا : إنها من الطور إلى الفرات[1] .

هذه برقية موجزة لقصة مدين وأخيهم شعيب ، وقد ذُكرت أيضاً في قصة موسى عليه السلام . وقال ﴿ أَخَاهُمْ .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [العنكبوت] ليدلّك أن الله تعالى حين يصطفي للرسالة يصطفي مَنْ له وُدٌّ بالقوم ، ولهم معرفة به وبأخلاقه وسيرته ، ولهم به تجربة سابقة ، فهو عندهم مُصْلح غير مُفْسد ، حتى إذا ما بلَّغهم عن الله صدَّقوه ، وكانت له مُقدِّمات تُيسِّر له سبيل الهداية .

وقوله : ﴿ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [العنكبوت] كلمة ﴿ يَٰقَوْمِ ﴾ [العنكبوت] : القوم لا تُقال إلا للرجال ؛ لأنهم هم الذين يقومون لمهمات الأمور ، ويتحملون المشاق ؛ لذلك يقول تعالى :

---

(١) قال محمد بن إسحاق : هم من سلالة مدين بن إبراهيم ، وشعيب هو ابن ميكيل بن يشجر . قال : واسمه بالسريانية يثرون . قلت : مدين تطلق على القبيلة وعلى المدينة ، وهي التي بقرب معان من طريق الحجاز . [تفسير ابن كثير ٢/٢٢١] .

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ .. (١١) ﴾ [الحجرات] فأطلق القوم ، وهم الرجال في مقابل النساء .

والعبادة : قلنا : طاعة الأمر والنهي ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ .. (٣٦) ﴾ [العنكبوت] أطيعوه فيما أمر ، وانتهوا عما نهى عنه ما دُمْتم قد آمنتم به إلهاً خالقاً ، فلا بُدَّ أنْ تسمعوا كلامه فيما ينصحكم به من توجيه بافعل ولا تفعل .

وتعلم أنه سبحانه بصفات الكمال أوجدك وأوجد لك الأشياء ، فأنت بعبادتك له لا تضيف إليه صفة جديدة ، فهو إله قبل أن توجد أنت ، وخالق بكمال القدرة قبل أنْ توجد ، وخلق لك الكون قبل أنْ توجد .

ثم بعد ذلك تعصاه وتكفر به ، فلا يحرمك خيره ، ولا يمنع عنك نعمه . إذن : فهو سبحانه يستحق منك العبادة والطاعة ؛ لأن طاعته تعود عليك أنت بالخير .

لذلك سبق أنْ قُلْنَا إن كلمة (العبودية) كلمة مذمومة تشمئز منها النفس ، إنْ كانت عبودية للبشر ؛ لأن عبودية البشر للبشر يأخذ فيها السيد خير عبده ، لكن عبودية البشر لله تعالى يأخذ العبد خير سيده ، فالعبودية لله عزٌّ وقوة ومنَعة وللبشر ذُلٌّ وهوان ؛ لذلك نرى كل المصلحين يحاربون العبودية للبشر ، ويدعون العبيد إلى التحرر .

فأوَّل شيء أمر به شعيب قومه ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ .. (٣٦) ﴾ [العنكبوت] كذلك قال إبراهيم لقومه ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ .. (١٦) ﴾ [العنكبوت] ، لكن لوطاً عليه السلام لم يأمر قومه بعبادة الله ، إنما اهتم بمسألة الفاحشة التي استشرتْ فيهم ، مع أن كل الرسل جاءوا للأمر بعبادة الله .

ونقول في هذه المسألة : لم يأمر لوط قومه بعبادة الله ؛ لأنه كان من شيعة إبراهيم عليه السلام ومؤمناً بديانته ، بدليل قوله تعالى : ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ .. (٢٦)﴾ [العنكبوت] فهو تابع له ؛ لذلك ينفذ التعاليم التي جاء بها إبراهيم ، فلم يأمر بالعبادة لأن إبراهيم أمر القوم بها ، لكنه تحمَّل مسألة أخرى ، وخصَّه الله بمهمة جديدة ، هي إخراج قومه من ممارسة الفاحشة التي انتشرت بينهم .

وقوله تعالى : ﴿وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ .. (٣٦)﴾ [العنكبوت] فلا بُدَّ أن اليوم الآخر لم يكُنْ في بالهم ، ولم يحسبوا له حساباً ، كأنهم سيفلتون من الله ، ولن يرجعوا إليه ؛ لذلك يُذكِّرهم بهذا اليوم ، ويحثُّهم على العمل من أجله .

وكيف لا نعمل حساباً لليوم الآخر ؟ ونحن في الدنيا نعامل أنفسنا بنفس منطق اليوم الآخر ؟ فأنت مثلاً تتعب وتشقى في زراعة الأرض ، وتتحمل مشاق الحرْث والبَذْر والسقى .. إلخ طوال العام ، لكن حين تجمع زرعك يوم الحصاد ، ويوم تملأ به مخازنك تنسى أيام التعب والمشقة ، وساعتها يندم الكسول الذي قعد عن العمل والسعي ، يوم الحصاد سترى أن أردب القمح الذي أخذتَه من المخزن وظننتَ أنه نقص من حسابك قد عاد إليك عشرة أرادبَّ ، فأخْذُك لم يقلل إنما زاد .

وكذلك اليوم الآخر نفهمه بهذا المنطق ، فنتحمل مشاقّ العبادة والطاعات في الدنيا لننال النعيم الباقي في الآخرة ؛ لأن نعيم الدنيا مهما كان ، يُنغصه عليك أمران : إما أنْ تفوته أنت بالموت ، أو يفوتك هو بالفقر .

أما في الآخرة فلا يفوتك نعيمها ولا تفوته . إذن : فالأَوْلى بك أنْ

تزرع للآخرة ، وأن تعمل لها ألف حساب ، فإنْ كان فى العبادة مشقة ، وللإيمان تَبعات ، فانظروا إلى عظَم الجزاء ، وإذا استحضرتَ الثواب على الطاعة هانتْ عليك مشقة الطاعة ، وإذا استفظعتَ العقاب على المعصية ، زهدتَ فيها ونأيْتَ عنها .

إذن : الذى يجعل الإنسانَ يتمادى فى المعصية أنه لا يستحضر العقاب عليها ، ويزهد فى الطاعة ؛ لأنه لا يستحضر ثوابها .

لذلك يقول النبى ﷺ : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن »[1] والمعنى : لو استحضر الإيمان ما فعل ، إنما غفل عن إيمانه فوقع فى المعصية .

ومَن استحضر ثواب الطاعة وجد لها حلاوة فى نفسه ، كما قال النبى ﷺ عن الصلاة : « أرحنا بها يا بلال »[2] .

وقوله : ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦)﴾ [العنكبوت] العثو : الفساد المستور والفساد يقال للظاهر ، فالمعنى : لا تعثَوا فى الأرض عثواً ، فالمفعول المطلق بمعنى الفعل ، فقوله تعالى ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦)﴾ [العنكبوت] كما نقول : اجلس قعوداً .

والفاء فى قوله ﴿فَقَالَ يَـٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ .. (٣٦)﴾ [العنكبوت] تدل على أنها تعطف هذا الكلام على كلام سابق ، والتقدير : وأرسلنا إلى مدين أخاهم شعيباً فقال : يا قوم إنى رسول الله إليكم ، ثم ذكر المطلوب منهم ﴿فَقَالَ يَـٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ .. (٣٦)﴾ [العنكبوت] والجمع بين

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٧٥) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٥٧) كتاب الإيمان ، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/٣٦٤) ، وأبو داود فى سننه (٤٩٨٥) عن رجل من الصحابة .

عبادة الله ورجاء اليوم الآخر يعنى : لا تفصلوا العبادة عن غايتها والثواب عليها ، ولا تفصلوا المعصية عن عقابها .

وقوله : ﴿ وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [العنكبوت] فلا أقول لكم : أصلحوا فلا أقلَّ من أن تتركوا الصالح على صلاحه لا تفسدوه ؛ لأن الخالق - عز وجل - أعدَّ لنا الكون على هيئة الصلاح ، وعلينا أنْ نُبقيه على صلاحه .

فالنيل مثلاً هبة من هبَات الخالق ، وشُريان للحياة يجرى بالماء الزلال ، وتذكرون يوم كان الفيضان يأتى بالطمى فترى الماء مثل الطحينة تماماً ، وكذا نملأ منه (الزير) ، وبعد قليل يترسب الطمى آخذاً معه كل الشوائب ، ويبقى الماء صافياً زلالاً . أما الآن فقد أصابه التلوث وفسد ماؤه بما يُلْقى فيه من مُخلَّفات ، وأصبحنا نحن أول مَنْ يعانى آثار هذا التلوث .

لذلك أصبح ساكن المدن مهما توفرت له سُبُل الحضارة لا يرتاح إلا إذا خرج من المدينة إلى أحضان الطبيعة البكْر التى ظلتْ على طبيعتها كما خلقها الله ، لا ضوضاء ، ولا ملوثات ، ولا كهرباء ، ولا مدنية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ (١) فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

(١) الرجفة فى القرآن : كل عذاب أخذ قوماً ، فهى رجفة وصيحة وصاعقة . قاله الليث . وقال ابن الأنبارى : الرجفة معها تحريك الأرض . ورجفت الأرض وأرجفت إذا تزلزلت . [لسان العرب - مادة : رجف] .

فلماذا يُكذِّب الناس دعوة الخير ؟

قالوا : لا يُكذِّب دعوة الخير إلا المستفيدون من الشر ؛ لأن الخير سيقطع عليهم الطريق ، ويسحب منهم مكانتهم وسلطتهم وسيادتهم ، فكل الذين عارضوا رسل الله كانوا أكابر القوم ورؤساءهم ، وقد ألفوا السيادة والعظمة ، واعتادوا أن يكون الناس عبيداً لهم ، فكيف إذن يُفسحون الطريق للرسل ليأخذوا منهم هذه المكانة ؟

وإلا ، فلماذا كان عبد الله بن أُبَيٍّ يكره رسول الله ﷺ ؟ لأنه يوم وصل رسول الله إلى المدينة كانوا يُعدُّون التاج لعبد الله بن أبى ، لينصبوه ملَكاً على المدينة ، فلما جاءها رسول الله شغلوا بهذا الحدث الكبير ، وانصرفوا عن هذه المسألة .

لكن ، ماذا قال شعيب لقومه حتى يُكذِّبوه ؟ لقد قال لهم أمرين هما : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ .. (٣٦) ﴾ [العنكبوت] ونهى واحد فى ﴿ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦) ﴾ [العنكبوت] ومعلوم أن الأمر والنهى قوْل لا يحتمل الصِّدْق ، ولا يحتمل الكذب ؛ لأنه إنشاء وليس خبراً ، لأنه ما معنى الكذب ؟ الكذب أن تقول لشىء وقع أنه لم يقع ، أو لشىء لم يقع أنه وقع ، وهذا يسمونه خبراً .

فإنْ وافق كلامك الواقعَ فهو صِدْق ، وإنْ خالف الواقع فهو كذب ، إذن : كيف نحكم على ما لم تقَع له نسبة أنه صدْق أو كذب ؟ حينما تقول مثلاً : قفْ . هل نقول لك إنك كاذب ؟ لا ، لأن واقع الإنشاء لا يأتى إلا بعد أنْ تتكلم ، لذلك قسَّموا الكلام العربى إلى خبر وإنشاء .

ولكى نبسط هذه المسألة على المتعلم نقول : المتكلم حين يتكلم يأتى بنسبة اسمها نسبة كلامية ، قبل أن يتكلم بها جالتْ فى ذهنه ،

فقبل أن أقول : زيد مجتهد دارتْ فى ذهنى هذه المسألة ، وكان فى الواقع يوجد شخص اسمه زيد وهو مجتهد فعلاً .

إذن : عندنا نسبة ذهنية ، ونسبة كلامية ، ونسبة واقعية ، فإنْ وُجدت النسبة الواقعية قبل الذهنية والكلامية ، فالكلام هنا خبر يُوصَف بالصدق أو يُوصف بالكذب .

إذن : النسبة الواقعية لا تأتى نتيجة النسبة الكلامية ، إنما حين تقول : قف فتأتى النسبة الواقعية نتيجة النسبة الكلامية ، وما دامت النسبة الواقعية تأخرتْ عن الكلامية ، فلا يُوصَف القول إذن لا بصدْق ولا بكذب .

ونعود إلى قول نبى الله شعيب نجده عبارة عن أمرين : ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ .. (٣٦)﴾ [العنكبوت] ونهى واحد : ﴿وَلا تَعْثَوْا فِى الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦)﴾ [العنكبوت] والأمر والنهى من الإنشاء الذى لا يُوصَف بالصدْق ولا بالكذب ، فكيف إذن يُكذِّبونه ؟

فأول إشكال : ﴿فَكَذَّبُوهُ .. (٣٧)﴾ [العنكبوت] ومنشأ هذا الإشكال عدم وجود الملكَة العربية التى يفهمون بها كلام الله . فالحق سبحانه قال هنا ﴿فَكَذَّبُوهُ .. (٣٧)﴾ [العنكبوت] لأنه أمرهم بعبادة الله وهو رسول من عند الله فيأمرهم بعبادته ؛ لأن عبادته تعالى واجبة عليهم ، وما أمرهم إلا ليُؤدُّوا الواجب عليهم ، واليوم الآخر كائن لا محالة فارجوه ، والإفساد فى الأرض مُحرم .

إذن : فالمعنى يحمل معنى الخبر ، فالأمران هنا ، والنهى أمر واجب فكذَّبوه لعلَّة الأمرين ، ولعلَّة النهى .

ومعنى ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ .. (٣٦)﴾ [العنكبوت] خصُّوه سبحانه بالعبادة ،

وهى الطاعة فى الأمر والانتهاء عن المنهى عنه ، وهذه العبادة مطلوبة من الكل ، وهى شريعة كل الأنبياء والرسل : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. (١٣) ﴾ [الشورى]

إذن : فمسألة العبادة والإيمان باليوم الآخر من القضايا العامة التى لا تختلف فيها الرسالات ، أما الشرائع : افعل كذا ، ولا تفعل كذا فتختلف من نبى لآخر .

ومعنى ﴿ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ .. (٣٦) ﴾ [العنكبوت] أى : اعملوا ما يناسب رجاءكم لليوم الآخر ، وأنت لماذا تحب اليوم الآخر ، ولماذا ترجوه ؟ لا يحبه ولا يرجوه إلا مَنْ عمل عملاً صالحاً فينتظره لينال جزاء عمله وثواب سَعْيه ، وإلا لو كانت الأخرى لقال : وخافوا اليوم الآخر .

إذن : الرجاء معناه : اعملوا ما يُؤهِّلكم لأنْ ترجُوا اليوم الآخر ، والإنسان لا يرجو إلا النافع له . وهنا لك أنْ تسأل : هل إذا آمن الإنسان ونفَّذ أحكام ربه أمراً ونهياً ، فجزاؤهم فى الآخرة رجاء يرجوه أم حَقٌّ له ؟ المفروض أن يقول للطائعين : ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ، فهى واجبة له ومن حَقِّه ، فكيف يسميه القرآن رجاءً وهو واقع ؟

قالوا : لأن جزاءنا فى الجنة فَضْلٌ من الله ، لأنه سبحانه خلقنا وخلق لنا ، وأمدَّنا بالطاقات والنعم قبل أنْ يُكلِّفنا شيئاً ، فحين تعبد الله حقَّ العبادة فإنك لا تقضى ثمن جميله عليك ، ولا توفيه سبحانه ما يستحق ، فإذا أثابك فى الآخرة فبمحْض فَضْله وكرمه .

لذلك قال سبحانه : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ

خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ [يونس]

كما لو أنكَ استخدمتَ أجيراً بمائة جنيه مثلاً فى الشهر ، وقبل أن يعمل لك شيئاً أعطيتـه أجره فهل يطلب منك أجراً آخر ؟ فلو جئتَ فى آخر الشهر وأعطيته عشرة جنيهات ، فهى فَضْل منك وتكرُّم .

لذلك قال ﴿وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ .. ﴿٣٦﴾﴾ [العنكبوت] لأن الجزاء فى الآخرة عند التحقيق والتعقُّل محض فَضْل من الله ؛ لذلك يقول النبى ﷺ : « لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمَّدنى الله برحمته »[1] .

والنهى فى : ﴿وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [العنكبوت] أى : لا تفسدوا فساداً ظاهراً ، أو : لا تعملوا أعمالاً هى فى ظنكم نافعة وهى ضارة ، تذكرون زمان كان القطن هو المحصول الرئيسى فى مصر ومصدر الدَّخْل ، وكانت تهدده دودة القطن فنقاومه مقاومة يدوية ، إلى أنْ خرج علينا الأمريكان بالمبيدات ، واستخدمنا مادة اسمها (دى دى تى) فقضتْ على الدودة فى بادىء الأمر ، وظنَّ الفلاح أن هذه المشكلة قد حُلَّت .

لكن بعد سنوات تعودتْ الدودة على هذه المادة ، وأصبح عندها حصانة ، وكأن (الدى دى تى) أصبح (كيفاً) عندها ، وبدأنا نحن نعانى الأمرَّين من آثار هذه المبيدات فى الماء ، وفى التربة ، وفى الزراعة ، وفى صحة الإنسان والحيوان . إذن : ينبغى النظر فى العواقب قبل البدء فى الشىء ، وأنْ يُقاسَ الضرر والنفع .

كذلك الحال عندما اخترعوا السيارات ، وقالوا : إنها ستريح الناس

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٦٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨١٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

فى أسفارهم وفى حمل أمتعتهم ، وبعد ما توصل العالم إليه من ثورة فى وسائل النقل لو قارنا نفعها بضـررها لوجدنا أن ضررها أكبر لما تُسبِّبه من تلوث ، ولو عُدْنا إلى الوسـائل البدائية ، واستخدمنا الدواب لكان أفضل .

وأذكـر عندمـا جئنا إلـى مصـر سنة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٨ وجـدنا فى الميادين العامـة مواقفَ للحمير ، مثل مـواقف السيارات الآن ، وكانت هى الوسـيلة الوحـيـدة للانتـقال ، ويكفـى أن رَوَثَ الحمـار يُخـصِّب الأرض ، أمّا عوادم السيارات فتسبب أخطر الأمراض وتؤدى للموت .

فماذا بعد أنْ كذَّب قومُ شعيب نبيهم ؟

كانت سنة الله فى الأنبياء قبل مـحمد ﷺ أن يُبلِّغ الرسول رسالة ربه ، لكن لا يُؤمر بحـمل السيف ضد الكفار ، إنمـا إنْ كذَّبوا بالآيات عاقبهم رب العزة سبحانه ، وتُحسم المسألة بهلاك المكذِّبين .

وكوْن الحق ـ تبارك وتعالى ـ لا يأمر الناسَ بقتال الكفار هذا أمر منطقى ، والدليل رأيناه فى بنى إسـرائيل لما طلبـوا من الله أنْ يفرض عليهم القتال ، فقال : ﴿ **هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ ..** (٢٤٦) ﴾ [البقرة]

ولم يُؤْمر بالقتال لـنشر الدعوة إلا رسول الله ﷺ ؛ لأنه ﷺ ومَنْ آمن معه مأمونون على هذا ، ولأنـه ﷺ آخر الرسل والأنبياء ، فلا بُدَّ أن يستوفى كل الشروط .

ونتيجة التكذيب ﴿ **فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ** (٣٧) ﴾ [العنكبوت] وهذا عـقاب الله ؛ لأنه كـان سبـحانه يتـولّى المكذِّب . وفى

(الحجر) وفى (هود) قال (الصيحة)[1] وحتى لا تتهم الآيات بالتضارب نقول : الصيحة : صوت شديد مزعج ، وهذا الصوت لا نسمعه إلا بتذبذب الهواء بشدة ، ولو كان تذبذب الهواء بلطف ما سميت صيحة .

إذن : الصيحة تخلخل فى الهواء بشدة ؛ لا بد أنْ ينتج عنه رجفة أى : هزة شديدة كالتى تهدم البيوت والعمارات نتيجة قنبلة مثلاً ، فالصيحة وُجدت أولاً ، تبعتها الرجفة ، لكن القرآن مرة يذكر الأصل فيقول (الصيحة) ومرة يذكر النتيجة فيقول (الرجفة) .

﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [العنكبوت] قال (فَأَصْبَحُوا) ولم يقُلْ مثلاً : فصاروا ليُحدِّد وَقْت أخذهم بالصباح ، والعادة أن تكون الإغارة وقت الصباح قبل أن يستعد خَصْمك لملاقاتك ، فما يزال فى أعقاب النوم خاملاً ، وإلى الآن يفضل رجال الحرب والقادة أن تبدأ الحرب فى الصباح ، حيث يُفَاجأ بها العدو .

وقد أصبح هذا الوقت قضية عامة ، تُعَدُّ مخالفتها من قبيل المكْر والخدعة فى الحرب ، كما خالفها قادتنا فى حرب أكتوبر ٧٣ ، حيث فاجأوا عدوهم فى وقت الظهيرة ، وقد تمت لهم المفاجأة ، وأخذوا عدوهم على غِرَّة ؛ لأنهم غيَّروا الوقت المعتاد ، وهو الصبح .

إذن : على الإنسان ألاَّ يتخذ فى أموره قضية رتيبة ، بل يُخضِع أموره لما يناسبها .

ومن الطرائف : حرص الرجل على أنْ يوقظ ولده مبكراً ليذهب

---

(١) وردت كلمة (الصيحة) كعذاب فى حق :
- قوم ثمود . (سورة هود - آية : ٦٧) . (سورة القمر - آية : ٣١) .
- قوم لوط . (سورة الحجر - آية ٧٣) .
- قوم شعيب . (سورة هود - آية ٩٤) .

إلى عملـه ، ويقضى مصـالحه ، فـقال له الوالد : ابن فـلان استـيقظ مبكراً ، فوجـد محفظة بها مـائة جنيه ، فقال الولد - وكـان كسولاً لا يريد أن يستيقظ مبكراً : هذه المحفظة وقعتْ من واحد استيقظ قبله .

ومعنى ﴿ جَاثِمِينَ (٣٧) ﴾ [العنكبوت] يعنى : هامدين بلا حراك .

ثم تنتـقل بنا الآيات إلـى لقطات أخـرى مـوجـزة من مـواكب الرسالات ، وكأنها برقيات :

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨) ﴾

نلحظ فى هذه البرقـيات السريعة أنهـا تذكر المقدمـة ، ثم النهاية مباشرة ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ[1] .. (٣٨) ﴾ [العنكبوت] هذه المقدمة ﴿ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ .. (٣٨) ﴾ [العنكبوت] هذا موجز لمـا نزل بهم ، وكأن الحق سبحانه يقول لنا : لن أحكى لكم ما حاق بهم ؛ لأنكم تشاهدون ديارهم ، وتمرون عليها ليل نهار ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٣٨) ﴾ [الصافات]

والآن مع الثورة العلمية اسـتطاعوا تصوير ما فى باطن الأرض ، وظهرت كـثير من الآثار لهـذه القرى عاد وثمود والأحـقاف[1] ، واقرأ

(١) عاد قوم هود عليه السلام كانوا يسكنون الأحقـاف وهى قريبة من حضرموت بلاد اليمن ، وثمود قـوم صالح كـانوا يسكنون الحـجر قريـباً من وادى القـرى ، وكانت العـرب تعرف مساكنهما جيداً وتمر عليها كثيراً . [تفسير ابن كثير ٣/٤١٣] .

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) ﴾ [الفجر]

وطبيعى الآن أن نجد آثار السابقين تحت التراب ، ولا بُدَّ أن نحفر لنصل إليها ؛ لأن عوامل التعرية طمرتها بمرور الزمن ، ولِمَ لا والواحد منّا لو غاب عن بيته شهراً يعود فيجد التراب يغطى أسطح الأشياء ، مع أنه أغلق الأبواب والنوافذ ، ولك أن تحسب نسبة التراب هذه على مدى آلاف السنين فى أماكن مكشوفة .

وحكَوْا أن الزوابع والعواصف الرملية فى رمال الأحقاف مثلاً كانت تغطى قافلة بأكملها ، إذن : كيف ننتظر أن تكون آثار هذه القرى باقية على سطح الأرض ؟ والآن نشاهد فى الطرق الصحراوية مثلاً إذا هبَّتْ عاصفة واحدة فإنها تغطى الطرق بحيث تعوق حركة المرور إلى أنْ تُزَاح عنها هذه الطبقة من الرمال .

إذن : علينا أن نقول : نعم يا رب رأينا مساكنهم ومررنا بها - ولو من خلال الصور الحديثة التى التقطت لهذه القرى ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ .. (٣٨) ﴾ [العنكبوت] يعنى : أغواهم بالكفر ، وأقنعهم أنه الأسلوب السليم والأمثل فى حركة الحياة ﴿ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ .. (٣٨) ﴾ [العنكبوت] فما دام قد زيَّن لهم سبيل الشيطان فلا بُدَّ أنْ يصدَّهم عن سبيل الإيمان ﴿ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨) ﴾ [العنكبوت] يعنى : لم نأخذهم على غِرَّة .

لأن المبدأ الذى اختاره الله تعالى لخلقه ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥) ﴾ [الإسراء] رسولاً يُبيِّن لهم وينذرهم ، ويحذرهم عاقبة الكفر ؛ لذلك لم يأخذهم الله تعالى إلا بعد أنْ أرسل إليهم رسولاً فكذَّبوه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾

ما زالت الآيات تُحدِّثنا عن مواكب الرسالات ، لكنها تتكلم عن المكذِّبين عاداً وثمود ، وهنا ﴿ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ .. ﴿٣٩﴾ ﴾ [العنكبوت] والدليل على قوله سبحانه فى الآية السابقة ﴿ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [العنكبوت] قوله تعالى هنا ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ .. ﴿٣٩﴾ ﴾ [العنكبوت] أى : بالأمور الواضحة التى لا تدع مجالاً للشك فى صدْق الحق سبحانه ، وفى صدْق الرسول فى البلاغ عن الله .

﴿ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ .. ﴿٣٩﴾ ﴾ [العنكبوت] استكبر : يعنى افتعل الكِبْر ، فلم يقُلْ تكبَّر ، إنما استكبر كأنه فى ذاته ما كان ينبغى له أنْ يستكبر ؛ لأن الذى يتكبَّر يتكبَّر بشىء ذاتى فيه ، إنما بشىء موهوب ؟ لأنه قد يسلب منه ، فكيف يتكبَّر به ؟

لذلك نقول للمتكبِّر أنه غفلت عينه عن مَرْأى ربه فى آثار خَلْقه ، فلو كان ربه فى باله لاستحى أنْ يتكبَّر .

فالإنسان لو أنه يلحظ كبرياء ربه لَصَغُر فى نفسه ، ولاستحى أن يتكبَّر ، كما أن المتكبر بقوته وعافيته غبى ؛ لأنه لم ينظر فى حال الضعيف الذى يتعالى عليه ، فلربما يفوقه فى شىء آخر ، أو عنده عبقرية فى أمر أهم من الفتوة والقوة ، ثم ألم ينظر هذا الفتوة أنها مسألة عَرضية ، انتقلتْ إليه من غيره ، وسوف تنتقل منه إلى غيره .

إذن : فقارون وفرعون وهامان لما جاءهم موسى بآيات الله الواضحات استكبروا فى الأرض ، وأنفوا أن يتبعوا لا بطبيعتهم وطبيعة وجود ذلك فيهم ، إنما افتعالاً بغير حق ﴿وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ۝٣٩﴾ [العنكبوت] فنفى عنهم أن يكونوا سابقين ، كما قال سبحانه : ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠﴾ [الواقعة]

والسبق لا يُمدح ولا يُذم فى ذاته ، لكن بنتيجته : إلى أىِّ شىء سبق ؟ كما نسمع الآن يقولون : فلان رجعى ، والرجعية لا تُذَم فى ذاتها ، وربما كان الإنسان مُسْرفاً على نفسه ، ثم رجع إلى منهج ربه ، فنعْم هذه الرجعية ، فالسبق لا يُذَم لذاته ، واقرأ إنْ شئت قوله تعالى : ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ .. ۝١٣٣﴾ [آل عمران] أى : سابقوا .

والمعنى هنا ﴿وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ۝٣٩﴾ [العنكبوت] أن هناك مضمارَ سباق ، فمن سبق قالوا : أحرز قَصَب السبق ، فإنْ كان مضمار السباق هذا فى الآخرة أيسبقنا أحد ليفلتَ منْ أخْذنا له ؟ إنهم لن يسبقونا ، ولن يُفلتوا من قبضتنا ، ولن يُعجزوا قدرتنا على إدراكهم .

ويقول الحق سبحانه :

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا(١) وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٤٠﴾

---

(١) الحصب : كل ما يُلقى فى النار لتسعر به . فالحاصب : إعصار شديد يقذفكم بالحصى فيهلككم والرياح العاصفة تفعل أكثر من ذلك . [القاموس القويم ١/١٥٥] .

الكلام هنا عن المكذِّبين والكافرين الذين سبق ذكرهم : قوم عاد ، وثمود ، ومدين ، وقوم لوط ، وقارون ، وفرعون ، وهامان ، فكان من المناسب أنْ يذكر الحق سبحانه تعليقاً يشمل كُلَّ هؤلاء لأنهم طائفة واحدة . فقال : ﴿ فَكُلاًّ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت] أى : كل مَنْ سبق ذكرهم من المكذِّبين فالتنوين فى ﴿ فَكُلاًّ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت] عوض عن كل من تقدَّم ذكرهم ، كالتنوين فى : ﴿ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الواقعة] فهو عوَض عن جملة ﴿ فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [الواقعة]

وقوله سبحانه ﴿ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت] والأخذ يناسب قوة الآخذ وقدرته ؛ لذلك يقول سبحانه عن أخْذه للمكذِّبين ﴿ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ [القمر] فالعزيز : الذى يغلب ولا يُغلب ، والمقتدر أى : القادر على الأخْذ ، بحيث لا يمتنع منه أحد ؛ فهو عزيز .

والأخذ هنا بسبب الذنوب ﴿ بِذَنبِهِ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت] ليس ظلماً ولا جبروتاً ولا جزافاً ، إنما جزاءً بذنوبهم وعدلاً ؛ ولذلك يأتى فى تذييل الآية :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت]

ثم يُفصِّل الحق سبحانه وتعالى وسائل أخْذه لهؤلاء المكذبين : ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت] الحاصب : هو الحصَى الصِّغار ترمى لا لتجرح ، ولكن يُحْمى عليها لتكوى وتلسع حين يرميهم بها الريح ، ولم يقُلْ هنا : أرسلنا عليهم ناراً مثلاً ؛ لأن النار ربما إنْ أحرقته يموت وينقطع ألمه ، لكن رَمْيهم بالحجارة المحمية تلسعهم وتُديم آلامهم . كما نسمعهم يقولون : سأحرقه لكن على نار باردة ؛ ذلك ليطيل أمد إيلامه .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ .. (٤٠)﴾ [العنكبوت] وهو الصوت الشديد الذى تتزلزل منه الأرض ، وهم ثمود ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ .. (٤٠)﴾ [العنكبوت] أى : قارون ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا .. (٤٠)﴾ [العنكبوت] وهم قوم نوح ، وفرعون .

هذه وسائل أربعة لإهلاك المكذِّبين : النار فى الحصباء ، والهواء فى الصيحة ، والتراب فى الخسف ، ثم الماء فى الإغراق ، ورحم الله الفخر الرازى[1] حين قال فى هذه الآية أنها جمعت العناصر التى بها وجود الإنسان والعناصر الأساسية أربعة : الماء والنار والتراب والهواء . وكانوا يقولون عنها فى الماضى العناصر الأربعة ، لكن العلم فرَّق بعد ذلك بين العنصر والمادة .

فالمادة تتحلَّل إلى عناصر ، أمّا العنصر فلا يتحلل لأقل منه ، فهو عبارة عن ذرات متكررة لا يأتى منها شىء آخر ، فالهواء مادة يمكن أنْ نُحلِّله إلى أكسجين و .... إلخ وكذلك الماء مادة تتكوَّن من عدة عناصر وذرات إلى أن جاء (مندليف) ووضع جدولاً للعناصر ، وجعل لكل منها رقماً أسماها الأرقام الذرية ، فهذا العنصر مثلاً رقم واحد يعنى : يتكون من ذرة واحدة ، وهذا رقم اثنين يعنى يتكون من ذرتين .. إلخ إلى أنْ وصل إلى رقم ٩٣ ، لكن وجد فى وسط هذه الأرقام أرقاماً ناقصة اكتشفها العلماء فيما بعد .

فمثلاً ، جاءت مدام كورى ، واكتشفت عنصر الراديوم ، فوجدوا

(١) هو : محمد بن عمر ، أبو عبد الله ، فخر الدين الرازى ، الإمام المفسر ، أوحد زمانه فى المعقول والمنقول وعلوم الأوائل ، وهو قرشى النسب ، أصله من طبرستان ، ومولده فى الرىّ (٥٤٤ هـ) وإليها نسبته . ويقال له « ابن خطيب الرىّ » ، تُوفِّى فى هراة عام (٦٠٦ هـ) عن ٦٢ عاماً . من كتبه « مفاتيح الغيب » ، « محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين » (الأعلام للزركلى ٦/٣١٣) .

فعلاً أن رقمه من الأرقام الناقصة فى جدول (مندليف) ، فوضعوه فى موضعه ، وهذا يدل على أن الكون مخلوق بعناصر مرتبة وصلت مع التقدم العلمى الآن إلى ١٠٥ عناصر .

ولما حلَّل العلماء عناصر التربة المخصبة التى نأكل منها المزروعات وجدوها ١٦ عنصراً ، تبدأ بالأكسجين كأعلى نسبة ، وتنتهى بالمنجنيز كأقل نسبة ، لأنها لم تصل إلى الواحد من الألف . فلما حلَّلوا عناصر جسم الإنسان وجدوا نفس هذه العناصر الستة عشرة .

وكأن الحق - سبحانه وتعالى - أقام حتى الكفار ليثبتوا الدليل على صدْقه تعالى فى خَلْق الإنسان من طين ، لنعلم أن الحق سبحانه حينما يريد أنْ يُظهِر سراً من أسرار كونه يأتى به ولو على أيدى الكفار .

وأول مَنْ قال بالعناصر الأربعة التى يتكون منها الكون فيلسوف اليونان أرسطو الذى توفى سنة ٣٨٤ قبل الميلاد ، وعلى أساس هذه العناصر الأربع كانوا يحسبون النجم ، فمثلاً عن الزواج يحسبون نجم الزوج والزوجة حسب هذه العناصر ، فوجدوا نجم الزوج هواءً ، ونجم الزوجة ناراً ، فقالوا (هيجعلوها حريقة) ، وفى مرة أخرى وجدوا الزوجة مائية والزوج ترابياً فقالوا (هيعملوها معجنة) .

ومعلوم أن الحق سبحانه لطلاقة قدرته تعالى يجعل عناصر البقاء هى نفسها عناصر الفناء ، وهو سبحانه القادر على أنْ يُنجى ويُهلك بالشيء الواحد ، كما أهلك فرعون بالماء ، وأنجى موسى - عليه السلام - بالماء .

كذلك حين نتأمل هذه العناصر الأربعة نجدها عناصر تكوين

الإنسان ، حيث خلقه الله من ماء وتراب فكان طيناً ، ثم جفَّ بالحرارة حتى صار صلصالاً كالفخار ، ثم هو بعد ذلك يتنفس الهواء ، فبنفس هذه العناصر التى كان منها الخَلْق يكون بها الهلاك .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يريد من خَلْقه أنْ يُقبلوا على الكون فى كل مظاهره وآياته بيقظة ليستنبطوا ما فيه من مواطن العبر والأسرار ؛ لذلك نجد أن كل الاكتشافات جاءت ، نتيجة دقَّة الملاحظة لظواهر الكون .

ويلفتنا ربنا إلى أهمية العلم التجريبى ، فيقول : ﴿ **وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ** (١٠٥) ﴾ [يوسف] فينبغى إذن أن نتأمل فيما نرى وما توصَّل الإنسان إلى عصر البخار وإلى قانون الطَّفْو عند أرشميدس ، وما توصل إلى الكهرباء والجاذبية والبنسلين إلا بالتأمل الدقيق لظواهر الأشياء . لذلك فالملاحظة هى أساس كل علم تجريبى أولاً ، ثم التجريب ثانياً ، ثم إعادة التجريب لتخرج النتيجة العلمية .

والهواء سبب أساسى فى حياة الإنسان ، وبه يحدث التوازن فى الكون ، لكن إنْ أراد الحق سبحانه جعله زوبعة أو إعصاراً مدمراً . وسبق أن قلنا : إنك تصبر على الطعام شهراً ، وعلى الماء عشرة أيام ، لكن لا تصبر على الهواء إلا بمقدار شهيق وزفير ، فالهواء إذن أهم سبب من أسباب بقاء الحياة ؛ لذلك نسمعهم يقولون فى شدة الكيد : (والله لأكتم أنفاسه) لأنها السبيل المباشر إلى الموت ؛ لذلك فالهواء عامل أساسى فى وسائل الإهلاك المذكورة .

وبالهواء تحفظ الأشياء توازنها ، فالجبال العالية والعمارات الشاهقة ما قامت بقوة المسلحات والخرسانات ، إنما بتوازن الهواء ، بدليل أنك

لو فرَّغْتَ جانباً منها من الهواء لانهارتْ فى هذا الجانب فوراً .

وبهذه النظرية يحدث الدمار بالقنابل ؛ لأنها تعتمد على نظرية تفريغ الهواء وما يسمونه مفاعل القبض ومفاعل البسط ، فما قامتْ الأشياء من حولك إلا لأن الهواء يحيط بها من كل جهاتها .

وقلنا : إن القرآن الكريم حينما يحدثنا عن الهواء يحدثنا عنه بدقة الخالق الخبير ، فكل ريح مفردة جاءت للتدمير والإهلاك ، وكل ريح بصيغة الجمع للنماء والخير والإعمار ، واقرأ إن شئت قوله تعالى : ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ .. (٢٢)﴾ [الحجر]

وقوله سبحانه ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ [1] عَاتِيَةٍ (٦)﴾ [الحاقة] لأنها ريح واحدة تهبُّ من جهة واحدة فتدمر .

ثم تُختم الآية بهذه الحقيقة : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)﴾ [العنكبوت] لأن الخالق ـ عز وجل ـ كرَّم الإنسان ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ .. (٧٠)﴾ [الإسراء] كرَّمه من بين جميع المخلوقات بالعقل والاختيار ، فإذا نظرتَ فى الكون واستقرأتَ أجناس الوجود لوجدتَ الإنسان سيد هذا الكون كله .

فالأجناس فى الكون مرتبة : الإنسان ودونه مرتبة الحيوان ، ثم النبات ، ثم الجماد ، فالجماد إذا أخذ ظاهرة من ظواهر فَضْل الحق عليه من النمو يصير نباتاً ، وإذا أخذ النبات ظاهرة من ظواهر فيض الحق على الخَلْق فأعطاه مثلاً الإحساس يصير حيواناً ، فإذا تجلى عليه الحق سبحانه بفضله وأعطاه نعمة العقل يصير إنساناً .

---

(١) الريح الصرصر : شديدة البرد . وقيل : شديدة الصوت . وقال الأزهرى : شديدة البرد جداً . [لسان العرب ـ مادة : صرر] .

لكن هل النبات حين يأخذ خاصيـة النمو فَفُضِّل عن الجماد يخرج عن الجمادية ؟ لا إنما تظل فيه الجمادية بدليل أنه إذا امتنع عنه النمو يعود جماداً كالحجر ، وكذلك الحيوان أخذ ظاهرة الحسِّ وتميَّز بها عن النبات ، لكن تظل فيه النباتية حيث ينمو ويكبر .

والإنسـان وهو سـيد الـكون الذى كرَّمـه ربه بالعـقل تظل فـيـه الجمادية بدليل أثر الـجاذبية عليه ، فإذا ألقى بنفـسه من مكان عالٍ لا يسـتطيع أن يمـسك نفـسـه فى الهـواء ، وكذلك تـظل فيـه النبـاتيـة والحيـوانية . ففـيه إذن كل خصـائص الأجناس الأخرى دونه ، ويزيد عليهم بالعقل .

لذلك لا يكلِّفه الله إلا بعد أنْ ينضج عقله ويبلغ ، وبشرط أن يسلم من العطب فى عـقله كالجـنون مثـلاً ، وأن يكون مخـتـاراً فـالمكره لا تكليفَ عليه ؛ لأنه غير مختار .

والإنسـان الذى كرَّمـه ربه بالعقـل والاختـيار ، وفـضَّله على كل أجناس الوجود لا يليق به أن يخضـع أو يعبد إلا أعلى منه درجة ، أما أنْ يتدنى فيعبد مـا هو أقل منه رتبة ، فهذا شىء عجيب لا يليق به ، فالعـابد لا بُدَّ أنْ يكون أدنى درجةً من الـمعبـود ، وأنت بالحكم أعلى درجةً مما تحتك من الحيوان والنبـات والجماد ، فكيف تجعله يتصرف فيك ، مع أنه من تصرفاتك أنت حين تُوجِده نَحْتاً ، وتقيمه فى المكان الذى تريده وإن انكسر تصلحه ؟!!

إذن : كرَّمك ربك ، وأهنْتَ نفسك ، ورضيـت لها بالدونية ، جعلك سيـداً وجعلت نفسك عـبداً لأحقـر المخلوقات ؛ لذلك يقـول تعالى فى

الحديث القدسي « يا ابن آدم ، خلقتُك من أجلي ، وخلقتُ الكون كله من أجلك ، فلا تشتغل بما هو لك عما أنت له »[1] .

إذن : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت] أي : لا ينبغي لله تعالى أنْ يظلمهم ، فساعةَ تسمع ما كان لك أنْ تفعل كذا ، فالمعنى أنك تقدر على هذا ، لكن لا يصح منك ، فالحق سبحانه ينفي الظلم عن نفسه ، لا لأنه لا يقدر عليه ، إنما لأنه لا ينبغي له أنْ يظلم ؛ لأن الظلم يعني أن تأخذ حقَّ الغير ، والله سبحانه مالك كل شيء ، فلماذا يظلم إذن .

ومثال ذلك نَفْي انبغاء قول الشعر من رسول الله ﷺ كما قال سبحانه : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ .. ﴿٦٩﴾ ﴾ [يس] فالنبي ﷺ كان يستطيع أن يقول شعراً ، فلديه كل أدواته ، لكن لا ينبغي للرسول أن يكون شاعراً ؛ لأنهم كذابون ، وفي كل واد يهيمون ، ففَرْق بين انبغاء الشيء ووجوده فعلاً .

ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [فصلت] بصيغة المبالغة ظلام ، ولم يقل ظالم ، لماذا ؟ لأن الله تعالى إنْ أباح لنفسه سبحانه الظلم ، فسيأتي على قَدْر قوته تعالى ، فلا يقال له ظالم إنما ظلاَّم - وتعالى الله عن هذا علُواً كبيراً .

ولما تكلمنا عن المبالغة وصيغها قلنا : إن المبالغة قد تكون في الحدث ذاته ، كأن تأكل في الوجبة الواحدة رغيفاً ، ويأكل غيرك خمسة مثلاً ، أو تكون في تكرار الحدث ، فأنت تأكل ثلاث وجبات ، وغيرك يأكل ستاً ، فنقول : فلان آكل ، وفلان أكُول أو أكال ، فالمبالغة نشأتْ إما من تضخيم الحدث ذاته ، أو من تكراره .

---

(١) أخرج أحمد في مسنده (٢/٣٥٨) عن أبي هريرة رفعه : « قال الله : ابن آدم ، تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنىً ، وأسُدُّ فقرك ، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلاً ، ولم أسدّ فقرك » .
وقال ابن كثير في تفسيره (٤/٢٣٨) : « ورد في بعض الكتب الإلهية : يقول الله تعالى : ابن آدم خلقتك لعبادتي فلا تلعب ، وتكفلت برزقك فلا تتعب ، فاطلبني تجدني ، فإن وجدتني وجدت كل شيء ، وإن فُتُّك فاتك كل شيء ، وأنا أحبُّ إليك من كل شيء » .

ففى قـوله تعالى : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦) ﴾ [فصلت] لم يقل للعبد ، إذن : تعدُّد الناس يقتـضى تعدُّد الظلم - إن تُصور - فجاء هنا بصيغة المبالغة (ظَلاَّم) .

وهناك قضية لغوية فى مسألة المبالغة تقول : إن نَفْى المبالغة لا ينفى الأصل ، وإثبات الأصل لا يثبت المبـالغة ، فحيـن نقـول مثـلاً : فلان أكول ، فـهو آكل من باب أوْلَى ، وحين نقـول : فلان آكل ، فلا يعنى هذا أنه أكول . فنَفْى المبالغة فى ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦) ﴾ [فصلت] لا ينفى الأصل (ظالم) ، وحاشا لله تعالى أن يكون ظالماً .

وقوله تـعالى : ﴿ وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) ﴾ [العنكبوت] وظلمهم لأنفسـهم جـاء من تدنّيهم وإهانتهم لأنفسـهم بالكفـر بعد أنْ كـرّمهـم الله ، وكان عليـهم أنْ يُصـعّـدوا هذا التكريم ، لا أن يُهـينوا أنفسهم بعبادة الأدنى منهم .

وبعـد أن حدثتنا الآيات عن الكـافرين الذين اتخـذوا الشركـاء مع الله ، وعن المكذِّبين للرسل ومـا كان من عقـابهم ، تعطينا مثـلاً يُقرِّب لنا هذه الحقائق ، فيقول سبحانه :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) ﴾

كلمة (مَـثَلُ) وردت بمشـتقاتهـا فى القرآن الكريم مـرات عدة ، ومادة الميم والثاء واللام جاءت لتعبر عن معنى يجب أنْ نعرفه ، فإذا